نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الخامس عشر

عناصر المحاضرة:

1. الأخطار التي تحدق بالمدينة.
2. وثيقة المعاهدة بين سكان المدينة.
3. أهم بنود الصحيفة المتعلقة بالمسلمين من المهاجرين والأنصار.
4. أهم بنود الصحيفة المتعلقة باليهود.
5. أما بنود الصحيفة المتعلقة بالمشركين.
6. زواج الرسول ﷺ بعائشة رضي الله عنها.
7. شراء عثمان بن عفان رضي الله عنه لبئر رومة.
8. استفزازات قريش ومكائدها للقضاء على الدعوة في المدينة.

كانت المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام تسمى في الجاهلية (يثرب)، فلما هاجر إليها ﷺ سماها المدينة، وطيبة، وطابة.

وقد جاء القرآن بتسميتها بالمدينة في عدة آيات: كما قال سبحانه: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ....} [التوبة/١٢٠].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى سَمَّى المَدِينَةَ طَابَةَ» أخرجه مسلم.

وبعد الهجرة صارت المدينة دار الإيمان، وحصن الإسلام.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى المَدِينَةِ، كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا» متفق عليه.

الأخطار التي تحدق بالمدينة:

✉حرص ﷺ فور وصله المدينة، على صلاة الجماعة والنداء لها، وقبل ذلك على تأسيس المسجد وبنائه، لعلمه ﷺ بأهمية الصلاة جماعة للتعاون والتكاتف على مواجهة الأخطار المحدقة بالمدينة بثوبها الجديد بعد الهجرة إليها وبدء انطلاق دولة الإسلام، فبدخولِ النبيِّ ﷺ أصبحت المدينة محفوفة بالمخاطر المتباينة، سواءٌ ما كان محدقًا بها من الخارج، أو مكنونًا بين بيوتاتها.

❍أما المخاطر الخارجية؛ فتكمن في معاداة أهل مكة الذين حنقوا على أهل المدينة إيواءهم للنبي ﷺ، والمهاجرين معه، وأيضاً القبائل العربية المحيطة بالمدينة، والأعراب الذين يعيشون على السلب والنهب والقتل!

❍والأخطر من هؤلاء جميعًا: الملوك العظام أصحاب الممالك الضخمة كفارس والروم، إذ لا يكره الملوك شيئًا كرههم لدين يحرر الناس من العبودية لهم، ويوجه طاعتهم المطلقة لله الخالق وحده لا شريك له.

⇦هذه خلاصة الأخطار الخارجية التي كانت تتربص بمحمد ﷺ وصحبه الكرام في المدينة.

❍وأما في الداخل فكان الخطر الأكبر منقسمًا إلى قسمين؛

❶ الخطر الأول: خطر المنافقين الذين نقموا على قومهم استقدام الغرباء -حسب زعمهم- ليساكنوهم أرضهم، والأخطر من ذلك توليتهم أمر المدينة رجلًا ليس منهم، وهذا أمر لم تشهده العرب يومًا من دهرهم، ولم تعرفه الأمم الأخرى كذلك؛ فالمتعارف عليه أن يكون أمير كل قوم من بينهم، ولكن الإسلام الراسخ في قلوب المؤمنين نسف عادات الجاهلية والتي تعتبر العصبية أهم ركائزها.

⇦ولكنَّ قلوبَ المنافقين لَمَّا كانت قفرًا من هذا الإيمان لم يكن في مقدورهم أبدًا تقبل هذا الوضع الجديد لا سيما سيدهم وصاحب أمرهم ابن سلول الذي سودت مكائده صحائف السيرة البيضاء والتي سنأتي عليها في حينها.

❷وأما الخطر الداخلي الثاني: فهو خطر اليهود، والذين يعيشون بالمدينة في حصون خاصة بهم، وأشهرهم: "يهود بني النضير، ويهود بَنِي زُرَيْقٍ، ويهود بَنِي قُرَيْظَةَ، ويهود بَنِي قَيْنُقَاعَ، ويهود خيبر".

⇦ولقد عاملهم النبيُّ ﷺ أحسن معاملة، وأنشأ معهم أوَّل معاهدةٍ سياسيةٍ، بل سنرى كيف أن النبي ﷺ قد تحالف مع يهود المدينة على تحقيق بعض المقاصد الشرعية، وهي حماية دولة المدينة؛ وطنهم الذي يعيشون فيه جميعًا، والتعاون في صدِّ أي ظالم يريد أيًا منهما بسوء، كما أوجب هذا التعاون العسكري التحذيرات المتبادلة من أي هجوم طارئ، أو شر مستجد.

ولما وصل النبي ﷺ إلى المدينة وفيها المسلمون واليهود والمشركون:

أراد ﷺ أن ينظم العلاقات بين أهل المدينة، وأن يبين حقوقهم وواجباتهم، فكتب كتاباً بهذا الشأن، ينظم علاقة المسلم بالمسلم، وعلاقة المسلم بغير المسلم.

وأهم بنود الصحيفة المتعلقة بالمسلمين من المهاجرين والأنصار:

❶الوحدة بين المسلمين، وذوبانهم في بوتقة الإسلام الذي وحَّد بينهم.

قال ﷺ (لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أبيضَ -: إلَّا بالتَّقوَى، النَّاسُ من آدمُ، وآدمُ من ترابٍ) صححه الألباني

❷وأنهم يداً واحدة على من بغى منهم أو عليهم، أو أفسد بين المؤمنين.

❸الإبقاء على ما كان موجودًا قبل الإسلام من أخلاق حسنة، وأهمها تكافل القبيلة في دفع الديات وفك الأسارى، وهذا يعني أن الإسلام لا يريد التغيير المطلق؛ وإنما يسعى لتغيير السيئ فحسب؛ أما الحسن فيقره ويؤيده كما أيد المواساة في الشدائد.

❹ترسيخ خلق المواساة بين المسلمين، وذلك في قوله ﷺ: "وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ" (سيرة ابن هشام).

والمفرَح هو: الرجل الذي يعيش وحيدًا بلا قبيلة له تعينه وتنصره. فلمَّا أكَّد النبيُّ ﷺ في الفقرة الأولى على أهمية تكافل القبيلة فيما بينها ومواساتها لمن يحتاجهم في دفع دية قتيل خطأٍ أو فكاك أسير، كان المناسب بعد ذلك أن يتكلم عن الغريب الذي لا قبيلة له، فهو وإن لم يجد عشيرة من ذوي رحمه فعشيرته إخوانه من بني دينه، وإخوة عقيدته، فعلى المسلمين أن يعينوا الْمُفْرَحَ، وهو المحزون لفقره وكثرة دينه وعياله وقلة أنصاره وأعوانه.

❺تحقيق الأمان الاجتماعي، إذ قال ﷺ: "وَأَنْ لَا يُحَالِفَ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ" (سيرة ابن هشام).

⇦ أي: لا يساعد مؤمن موالي أخيه ومماليكه على الهرب منه، ولا يفسد عليه غلمانه.

❻ وجوب الوحدة بين المسلمين والتعاون فيما بينهم على نصرة المظلوم، ورد الظالم حتى وإن كان أحب النَّاس إلى قلبه ولده الذي ما هو إلا قطعةٌ منه! وفي هذا أعظم قضاء على العصبية الجاهلية الداعية لأهلها على مناصرة أقربائهم ولو في الظلم، فالإسلام أوجب محاربة الظالم ولو كان أقرب الناس؛ كما في قول الله -سبحانه وتعالى-: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ....) [النساء: 135].

وقول نبينا ﷺ: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: "تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ"(رواه البخاري: 2444)

❼ التأكيد على عقيدة الولاء والبراء، إذ يقول -صلى الله عليه وسلم-: "وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ" (سيرة ابن هشام) وعدم مشروعية موالاة الكافرين، إذ قال ﷺ: "وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ". (سيرة ابن هشام)

❽تكافؤ المسلمين، إذ قال ﷺ: "وَإِنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ، يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ" (سيرة ابن هشام)

⇦فإذا أجار مسلم كافرًا وأمنه على نفسه وماله، فقد وجب على جميع المسلمين أن يؤمنوه على نفسه وماله، ولا يؤذوه في شيء، وقد أجار النبي ﷺ رجلًا أمنته امرأة؛ كما في الحديث عن أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ "متفق عليه

❾التكافل بين المسلمين، أكَّد عليه النبي ﷺ بقوله: "وَإِنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعْقِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا" (سيرة ابن هشام)، أي: إذا خرج المجاهد وجب على أخيه المسلم أن يخلفه في أهله وعياله ويتعاهدهم بالعناية والخدمة، فيكون شريكًا للمجاهد في الآخرة في الأجر والمثوبة، قال ﷺ: "لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا، وَالْأَجْرُ بَيْنَهُمَا "رواه مسلم.

❿وأنهم إذا اختلفوا في شيء، فإن مرده إلى الله تعالى، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

أما الصحيفة المتعلقة باليهود فأهم بنودها:

❶أن يُنفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين.

❷وأن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته، وأن على المسلمين نفقتهم، وعلى اليهود نفقتهم.

❸وأن لا يخرج أحد من يهود المدينة إلا بإذن محمد ﷺ.

❹وأن بينهم النصر على من حارب أهل المدينة، مشروعية التحالف مع غير المسلمين لتحقيق بعض مقاصد الشريعة بالشروط المعتبرة، إذ قال ﷺ: "وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسْوَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ" (سيرة ابن هشام).

❺وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وأن من خرج آمن، ومن قعد بالمدينة آمن، إلا من ظلم أو أثم....

أما بنود الصحيفة المتعلقة بالمشركين، فهي:

❶ألا تُجار قريش ولا من نصرها.

❷ولا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً.

❸ ولقريش وحلفائها حق الصلح إذا طلبوه، إلا من حارب منهم الإسلام.

❹وأن لا يسدى لقريش أي عون.

وبهذه الحكمة، وبهذا العدل، وبهذه الرحمة أرسى رسول الله ﷺ قواعد المجتمع الجديد، وقواعد الأمن والحياة السعيدة، مما لم يعرف التاريخ سواه: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (103) آل عمران

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة/١٢٨]

زواج الرسول ﷺ بعائشة رضي الله عنها:

في شهر شوال، من السنة الأولى للهجرة، بنى الرسول ﷺ بعائشة رضي الله عنها، وهي بنت تسع سنين.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: تَزَوَّجَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ، فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ فَنَزَلْنَا فِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ خَزْرَجٍ، فَوُعِكْتُ فَتَمَرَّقَ شَعَرِي، فَوَفَى جُمَيْمَةً فَأَتَتْنِي أُمِّي أُمُّ رُومَانَ، وَإِنِّي لَفِي أُرْجُوحَةٍ، وَمَعِي صَوَاحِبُ لِي، فَصَرَخَتْ بِي فَأَتَيْتُهَا، لاَ أَدْرِي مَا تُرِيدُ بِي فَأَخَذَتْ بِيَدِي حَتَّى أَوْقَفَتْنِي عَلَى بَابِ الدَّارِ، وَإِنِّي لَأُنْهِجُ حَتَّى سَكَنَ بَعْضُ نَفَسِي ثُمَّ أَخَذَتْ شَيْئًا مِنْ مَاءٍ فَمَسَحَتْ بِهِ وَجْهِي وَرَأْسِي، ثُمَّ أَدْخَلَتْنِي الدَّارَ فَإِذَا نِسْوَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فِي البَيْتِ، فَقُلْنَ عَلَى الخَيْرِ وَالبَرَكَةِ، وَعَلَى خَيْرِ طَائِرٍ، فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِنَّ، فَأَصْلَحْنَ مِنْ شَأْنِي، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا رَسُولُ الله ﷺ ضُحًى، فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ». متفق عليه.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «تَزَوَّجَهَا وَهِيَ بِنْتُ سَبْعِ سِنِينَ، وَزُفَّتْ إِلَيْهِ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ، وَلُعَبُهَا مَعَهَا، وَمَاتَ عَنْهَا وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانَ عَشْرَةَ». أخرجه مسلم.

وكان ﷺ قد رأى عائشة رضي الله عنها في المنام قبل أن يخطبها.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «رَأَيْتُكِ فِي المَنَامِ يَجِيءُ بِكِ المَلَكُ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَقَالَ لِي: هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَكَشَفْتُ عَنْ وَجْهِكِ الثَّوْبَ فَإِذَا أَنْتِ هِيَ، فَقُلْتُ: إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ الله يُمْضِهِ» متفق عليه.

فضائل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

أحبت السيدة عائشة الرسول ﷺ حبا جما، وأصبح لها مكانة خاصة في قلبه، كان دائما يقول الرسول ﷺ " اللَّهمَّ هذا قَسمي فيما أملِكُ، فلا تلُمْني فيما تملِكُ ولا أملِكُ " البدر المنير

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، هي البكر الوحيدة التي تزوجها رسول الله ﷺ.

عن ابْن أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ قَالَتْ: «أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ، فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ الله ﷺ وَمِنْ وُجُوهِ المُسْلِمِينَ، قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ قَالَ: فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ الله، زَوْجَةُ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلاَفَهُ فَقَالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا». أخرجه البخاري.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالَتْ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ لَوْ نَزَلْتَ وَادِيًا وَفِيهِ شَجَرَةٌ قَدْ أُكِلَ مِنْهَا، وَوَجَدْتَ شَجَرًا لَمْ يُؤْكَلْ مِنْهَا، فِي أَيِّهَا كُنْتَ تُرْتِعُ بَعِيرَكَ؟ قَالَ: «فِي الَّذِي لَمْ يُرْتَعْ مِنْهَا» أخرجه البخاري.

❁ يسهر على راحتها وسعادتها، فقالت عائشة «والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بالحراب، والرسول يسترني بردائه لأنظر إلى لعبهم من بين أذنه وعاتقه، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف» رواه الإمام أحمد

كان رسول الله ﷺ يقول لعائشة: «إِنِّي لَأَعْلَمُ إذا كُنْتِ عَنِّي راضِيَةً، وإذا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى قالَتْ: فَقُلْتُ: مِن أيْنَ تَعْرِفُ ذلكَ؟ فقالَ: أمَّا إذا كُنْتِ عَنِّي راضِيَةً، فإنَّكِ تَقُولِينَ: لا ورَبِّ مُحَمَّدٍ، وإذا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى، قُلْتِ: لا ورَبِّ إبْراهِيمَ قالَتْ: قُلتُ: أجَلْ واللَّهِ يا رَسولَ اللَّهِ، ما أهْجُرُ إلَّا اسْمَكَ» صحيح بخاري.

قال ﷺ لعائشة في حديث أم زرع الطويل والذي رواه البخاري: "كنت لك كأبي زرع لأم زرع" أي أنا لك كأبي زرع في الوفاء والمحبة، فقالت عائشة بأبي وأمي لأنت خير لي من أبي زرع لأم زرع!!

❁ كان "يدلعها" فكان يقول لعائشة أيضا: "يا حميراء، والحميراء تصغير حمراء يراد بها البيضاء".

سألت السيدة عائشة رضي الله عنها ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت «كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ» رواه الإمام أحمد.

كان النبي ﷺ إذا غضبت عائشة وضع يده على كتفها وقال ﷺ «اللهُمَّ اغْفِرْ لَها ذَنْبَها، وأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِهَا، وأَعِذْهَا مِنْ مُضِلاَّتِ الْفِتَنِ». صحيحٌ حَسَنٌ

قالت عائشة رضي الله عنها «لما رأيتُ مِنَ النبيِّ ﷺ طِيبَ النَّفْسِ قلتُ يا رسولَ اللهِ ادعُ اللهَ لي قال اللهمَّ اغفرْ لعائشةَ ما تقدَّم من ذنبِها وما تأخَّرَ وما أسرَّتْ وما أعلنَتْ فضحكتْ عائشةُ حتى سقط رأسُها في حِجرِ رسولِ اللهِ ﷺ من الضَّحِكِ فقال أيَسُرُّكِ دُعائي فقالتْ ومالي لا يَسُرُّني دُعاؤُكَ فقال واللهِ إنها لَدَعْوتي لأُمَّتي في كلِّ صلاةٍ». السلسة الصحيحة

❁ كان دائما يتحاكى بمكانتها الخاصة في قلبه، فقال ﷺ «وفَضْلُ عائِشَةَ علَى النِّساءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ علَى سائِرِ الطَّعامِ». صحيح البخاري

❁وكانت رضي الله عنها تكنى بأم عبد الله ابن أختها أسماء عبد الله بن الزبير، الذي سماه رسول الله ﷺ، وكنى ﷺ عائشة رضي الله عنها بأم عبد الله، ولم تلد قط.

عَنْ أَسْمَاءَ رضي الله عنها، أَنَّهَا حَمَلَتْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ قَالَتْ: فَخَرَجْتُ وَأَنَا مُتِمٌّ، فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَنَزَلْتُ بِقُبَاءٍ فَوَلَدْتُهُ بِقُبَاءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم «فَوَضَعَهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ حَنَّكَهُ بِالتَّمْرَةِ، ثُمَّ دَعَا لَهُ وَبَرَّكَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الإِسْلَامِ

❁وكان ﷺ يلاطف عائشة رضي الله عنها، ويباسطها، ويراعي صغر سنها.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَلْعَبُ بِالبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي، فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ (يتغيَّبْنَ منه)، فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي (ويرسِلُهنَّ إليَّ فيلعَبْنَ معي). متفق عليه

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: « تَقَدَّمُوا» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: « تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ» فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: « تَقَدَّمُوا» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ» فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: « هَذِهِ بِتِلْكَ» أخرجه أحمد.

❁وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وُلدت في الإسلام، وهي أصغر من فاطمة بنت محمد ﷺ بثمان سنين، وكانت امرأة بيضاء جميلة، تزوجها الرسول ﷺ، ولم يتزوج بكراً غيرها، ولا أحب امرأة حبها إلا خديجة، ولا يُعلم في نساء العالمين امرأة أعلم منه، فقد روت عن النبي ﷺ علماً كثيراً طيبا مباركاً، وروت عن الخلفاء الراشدين وعامة الصحابة علما كثيرا، وروت رضي الله عنها عن النبي ﷺ أكثر من ألفي حديث.

❁جمعت رضي الله عنها من العلم والفضل والبيان ما لم تجمعه امرأة مثلها، وكانت عالمة واسعة العلم، تُعلم العلماء، وتفتي المفتين، وتواسي المحتاجين، وكانت بليغة بارعة البيان، زعيمة في كل شيء في العلم والأدب والحفظ والبيان.

عَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ» قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ «أَبُوهَا» قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «عُمَرُ» فَعَدَّ رِجَالًا. متفق عليه.

❁وكانت مدة مقامه ﷺ مع عائشة رضي الله عنها تسع سنين، ومات عنها ﷺ ولها من العمر ثماني عشرة سنة، وعاشت رضي الله عنها بعد الرسول ﷺ قريباً من خمسين سنة، وتوفيت بالمدينة، سنة ثمان وخمسين للهجرة، ليلة الثلاثاء، لسبع عشرة خلت من رمضان، ودفنت رضي الله عنها بالبقيع.

🗐شراء عثمان بن عفان رضي الله عنه لبئر رومة:

عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَفَرَ بِئْرَ رُومَةَ فَلَهُ الجَنَّةُ»، قال عثمان: فَحَفَرْتُهَا. أخرجه البخاري.

وعن عثمان رضي الله عنه قال: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدِمَ المَدِينَةَ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ يُسْتَعْذَبُ غَيْرَ بِئْرِ رُومَةَ، فَقَالَ: «مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلَ دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ المُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الجَنَّةِ» فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ صُلْبِ مَالِي. أخرجه الترمذي.

استفزازات قريش ومكائدها للقضاء على الدعوة في المدينة:

⇦استفزازات قريش واتصالهم بعبد الله بن أبي

تقدم ما أدلى به كفار مكة من التنكيلات والويلات على المسلمين في مكة، ثم ما أتوا به من الجرائم التي استحقوا لأجلها المصادرة والقتال، عند الهجرة، ثم إنهم لم يفيقوا من غيهم ولا امتنعوا عن عدوانهم بعدها، بل زادهم غيظاً أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمناً ومقراً بالمدنية، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي سلول- وكان إذ ذاك مشركاً - بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة - فأعلموه أنهم كانوا قد اتفقوا عليه، وكادوا يجعلونه ملكاً على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله ﷺ إليهم، وآمنوا به - كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين، يقولون لهم في كلمات باتة:

إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم.

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبي ليمتثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة - وقد كان يحقد على النبي ﷺ: لما يراه أنه استلبه ملكه يقول عبد الرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقالوا أبناءكم وإخوانكم)، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا.

امتنع عبد الله بن أبي بن سلول عن القتال إذ ذلك، لما رأى خوراً أو رشداً في أصحابه، ولكن يبدو من تصرفاته أنه كان متواطئاً مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود، ليعينوه على ذلك، ولكن تلك هي حكمة النبي ﷺ التي كانت تطفئ نار شرهم حينا بعد حين.

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام:

ثم أن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمراً، فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف البيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد - ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليكم منه: طريقك على أهل المدينة.

قريش تهدد المهاجرين:

وكأن قريشاً كانت تعزم على شر أشد من هذا، وتفكر في القيام بنفسها للقضاء على المسلمين، وخاصة على النبي ﷺ.

ولم يكن هذا مجرد وهم أو خيال، فقد تأكد لدى رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا يبيت إلا ساهراً، أو في حرس من الصحابة.

من لقب بحارس رسول الله؟

عن عائشة بنت أبي بكر قالت: سَهِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقْدَمَهُ الْمَدِينَةَ لَيْلَةً، فَقَالَ: لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ، قَالَتْ: فَبَيْنَما نَحْنُ كَذَلِكَ سَمِعْنَا خَشْخَشَةَ سِلَاحٍ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ نَامَ. متفق عليه

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي، بل كان ذلك أمراً مستمراً، فقد روى عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزل: {وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: 67]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: (يا أيها الناس، انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل).

ولم يكن الخطر مقتصراً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كان يحدق بالمسلمين كافة، فقد روى أبي بن كعب، قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه.

المراجع:

❶فقه السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة.

❷روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

❸الرحيق المختوم المباركفوري.

❹السيرة النبوية لابن هشام.